دلالة الصّورة في الكتاب المدرسي بين الجاذبية والفاعلية
السنة الأولى ابتدائي أنموذجا

Significance of image in the textbook between gravity and effectiveness- The first year as a model

تاريخ الإرسال: 2018-03-27 تاريخ القبول: 2018-10-30

الدكتور حبيب بوزوادة
habibbouzouada@gmail.com
جامعة معسكر- الجزائر

الملخص:

تعتبر الصورة لغة القرن الواحد والعشرين، إنّها اللغة التي يفهم كلّ سكان العالم، وبإمكاننا أن نتواصل بها مع النّاس، بدون الحاجة إلى مترجم، ولهذا فإنّها أصبحت من ضرورات العملية التعليمية، نظراً لقدرتها على حمل الكثير من المعاني بأسلوب سهل، وطريقة واضحة، أمّا في مراحل التعليم الابتدائي فإنّ الصورة أكثر من ضرورية، نظراً لضعف الرّصيد اللغوي للمتعلمين، الذين يكونون بحاجة ماسة إلى لغة بديلة أكثر وضوحاً، قادرة على توصيل المعارف إلى التلاميذ المبتدئين.

الكلمات المفتاحية: التعليم، الصورة، دلالة، اللغة، التلميذ.

Abstract :

Picture is the main aspect of the 21st century; it's the most comprehensive language in the world. We could communicate directly and easily with no need to translator. Thus it's one of the basic elements in educational process, due to its higher capacity of involving different meanings, easily and clearly. Pictures are necessary for primary schools level, because of learners' vocabularies lack, that's why beginner pupils need a clear language able to teach them knowledge simply.

Keywords: education, picture, signification, language, pupil.

علاقة الصورة باللغة:

لقد ظل الفكر الإنساني عموما، والعربي على وجه التحديد ينظر إلى اللغة من الوجهة الصوتية باعتبارها ظاهرة فيزيائية ذهنية، أسيرة الجهازين النطقي والسمعي فحسب، فقد حدّها ابن جني بقوله: "هي أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم"[1]، وعلى النهج نفسه سار عالم اللسانيات أندريه مارتينيه عندما قال: "تعبير اللغة يشير في العادة إلى قدرة البشر على التفاهم بمساعدة دلائل صوتية"[2]، إلاّ أن العالم السويسري فرديناند دو سوسير تنبّه إلى أهمّية الجانب الرمزي للغة، ونظر إليها بوصفها نظاما بديلا لما هو في الذهن، فقال: "اللغة نظام من الرموز التي تعبّر عن الأفكار"[3]، أي أن اللغة هي عالم بديل لما هو في الذهن، مما يعطي لهذا المفهوم مساحة أكبر، ويمنحه قدرا من الشمولية، إذ اللغة نظام رمزي لا تهم طبيعة رموزه، بقدر ما يهم النسق الذي ينظمها، والوظيفة التي تؤديها تلك الرموز، ولذلك تحدّث دو سوسير عن لغة الصم البكم، والإشارات العسكرية، وإشارات المرور وغيرها.

ولا ننكر أن اللغة الطبيعية – الصوتية هي الأكثر فاعلية، والأقدر على التعبير عمّا في الضمير، لعدة اعتبارات أهمها أنها هي الأكثر تطورا ومواءمة للحالات الذهنية والسيكولوجية التي يمرّ بها الإنسان، فهي لغة كفيلة بإنتاج عدد

هائل من الرموز، التي يؤدي اتساقها ضمن آليات منطقية معينة، إلى إنتاج عدد لا محدود من البنيات التي تترجم معتقداتنا وأحاسيسنا، وعبرها نلبي حاجاتنا المختلفة... ولكن كون اللغة الطبيعية هي الأكفأ في مجال التواصل لا يعني في شيء إلغاء مختلف الأنظمة الرمزية الأخرى التي نص عليها دوسوسير، فعلامة (قف) مثلا التي تنصب لتنظيم المرور، هي أكثر جدوى من تولّي شخصٍ ما القيام بتوقيف السّيارات عبر ترديده لكلمة (توقف) عند مرور أي سيارة، مع أنّ هذه العلامة المرورية ذات طبيعة بصرية بالأساس.

والعلامة اللسانية هي المرتبة الثالثة من مراتب الوجود التي أشار إليها الإمام الغزالي إذ قال: "إنّ للشيء وجودا في الأعيان، ثمّ في الأذهان، ثمّ في الألفاظ، ثمّ في الكتابة.."[4]، فالوجود العيني يعبّر عن المرجع (Référent)، والوجود الذهني يعبّر عن عالم المدلولات (Signifies)، أما الوجودان الملفوظ والمكتوب فيمثلان العالم الرّمزي، وهو عمل إبداعي، من صنع الإنسان وخلقه، يمكّنه من إيجاد الآلية المناسبة للتواصل، والإعراب عمّا في النفس، وهو قائم على أساس التواضع والاصطلاح، كما أنه ذو طبيعة اعتباطية غير معلّلة.

فالتراتبية التي تنبّه لها الغزالي "تنتقل من الأكثر بساطة إلى الأكثر تعقيدا، من خلال الانتقال من العالم الحسي إلى العالم الذهني، إلى العالم الرمزي بشقيه اللفظي والكتابي"[5]، وهو ما يؤشّر على أهمية الطابع الرمزي للغة، الذي يجعلها قناة الاتصال الوحيدة بين الذات والعالم.

ومن ضمن الآليات اللغوية التي أبدعها العقل البشري مختلف الرّموز التي تنوب عمّا في الذهن وتعبّر عنه، كالصور الفوتوغرافية والمنحوتات والأشكال الفنية المختلفة، التي وإن كانت في أحيان كثيرة قائمة على المشابهة مع موضوعها إلا أنها ذات مقدرة إبلاغية لا يستهان بها، فتأتي مكمّلة للغة الملفوظة، وأحيانا تحل محلّها، وعلى ضوء تعريف دوسوسير الذي نظر إلى اللغة من جهة الوظيفة، وليس من جهة الماهية، يمكننا القول بكل ثقة أن اللغة لا تنحصر في الجانب اللفظي، ولكنها تشمل جميع الآليات التي تحقق غاية التواصل والتفاهم، كلغة الجسد والإيماءات الحركية، ولغة الصورة واللون، ولغة الضوء، ولغة الموضة وتصاميم الأزياء، فأيّ ظاهرة تعبيرية هي لغة.

يتأكّد ذلك عندما نراجع وظيفة اللغة عند أندري مارتينيه الذي تحدّث عنها بوصفها:

1. دعامة من دعامات التفكير.
2. الوحيدة القادرة على التعبير عن الحالات النفسية والمشاعر الداخلية.
3. ذات وظيفة جمالية فنية.
4. تحقق الوظيفة التواصلية[6].

فهذه السمات التي اعتبرها مارتينيه —في سياق دراسته اللسانية– من خصائص اللغة الطبيعية، يمكننا ملاحظتها بسهولة في كافة أشكال التواصل الرّمزي، ومنه الصورة.

وقد تنبهّت سيميولوجيا التواصل إلى أهمية الوظيفة الإبلاغية للغة، فلا يمكن للبحث السيميائي أن يكون مثمرا ما لم نكن بإزّاء علامات تتوفر على قصدية التواصل، ولذلك أشار إريك بويسنس (Eric Buyssenes) في كتابه السيميولوجيا والتواصل إلى التواصل عبر الجسد، من خلال الحواس، فتحدّث عن التواصل الشمّي والسمعي والبصري

والذوقي واللمسي، وهذه نظرة أكثر شمولية للغة، تتخطى أعتاب الحرف والصوت إلى كافة أشكال التواصل الإنساني[7]، ولهذا السبب قال بيير جيرو (P.Giraud): "يعتمد الاتصال الألسني على العلامات المنطوقة، لكن الخطاب يترافق غالبا وبعض العلامات الموازية: تنغيمات، حركات إيمائية، حركات"[8].

دور الصورة في عملية التعليم والتعلّم:

وإذا كنا قد اتفقنا على اعتبار الصورة شكلا من أشكال اللغة، وآلية من آليات التواصل بين البشر، أمكننا القول أنّها واحدة من ضرورات العملية التعليمية، التي تقوم على مبدأ التواصل بين طرفيها الرئيسين (المعلّم والمتعلّم)، ومن المعلوم أنّ ثقافة الصورة ليست متجذّرة في الثقافة العربية الإسلامية بسبب النقاش الفقهي الذي دار –وما يزال– حول مشروعيتها الدينية. لذلك لم تعوّل مؤسسات التعليم ورجالاته في تاريخنا العربي الإسلامي على هذه الأداة الهامة والضرورية، ويعتبر توظيف الصورة في الحياة العامة أمرا جديدا في ثقافتنا، إذ أصبحت حاضرة في أغلفة الكتب والمجلاّت واللوحات الإشهارية وعلى جدران البيوت وغيرها.

وتمثّل الصورة بالنسبة للمعلّم، الأداة الثانية بعد اللغة اللسانية الكفيلة بنقل المعارف، بل ربّما كانت الأداة الأولى، حينما تعجز اللغة الطبيعية عن أداء الدور المنوط بها، فالمعلّم يتمكّن –بجهد أقل– من أن يتحدّث عن بعض الموجودات في الأعيان (كما سمّاها الغزالي) من دون الحاجة إلى تسميتها بأسماء لا يستوعبها المتعلّم، في المراحل العمرية الأولى خصوصا، وهذا ما بات معمولا به في المعاجم الحديثة التي تقوم بوضع رسومات وصور وخرائط والعديد من الأشكال التوضيحية، اختصارا للوقت وللجهد.

فالمتعلّم –خصوصا في مرحلة الابتدائي– يكون محدود المعجم اللغوي، ولا يملك الذخيرة الكافية من المفردات التي تؤهله لفهم ما يتلقاه في المدرسة، لذا يصبح من الضروري الاستعانة بالصورة على اعتبار أنّها وسيط أمين وجدير بالنيابة عن الكلمة المقصودة، والمعنى المراد، مثال ذلك الصور المعبّرة عن الفصول الأربعة، أو الشعائر الدينية كالصّلاة والحج، أو بعض الحيوانات، وغيرها...

إنّ اعتماد الصورة هو تفعيل لعدد من المهارات، وتنمية للكثير من الخبرات لدى الطفل، الذي ينبغي النظر إليه نظرة كلية، نخاطبه من خلالها، خطابا يتجاوز الطبيعة اللسانية للغة، إلى خطاب ينسجم مع طبيعة الطفل النفسية والإدراكية والمهارية. فالطفل أرض خصبة بكر ينبغي استثمارها واستغلال جميع طاقاتها، وعدم التركيز على مهارة بعينها، لئلا يحصل إنهاك لملكة من الملكات، وإهمال الباقي، مما يؤدي في النهاية إلى تراجع في التحصيل العلمي. فتحفيز التلميذ على استخدام ذاكرته البصرية والسمعية والشمية والذوقية واللمسية يتيح إمكانات أخرى للمعلّم، بتعدد السبل الكفيلة بنقل المعرفة، وليس الاقتصار على قناة وحيدة ممثلة في التلقين الشفهي.

وظيفة الصورة في الكتاب المدرسي:

تقوم العملية التعليمية على ثلاثة أركان أساسية وهي المعلّم والمتعلّم والمادة العلمية، فهذا الثلاثي يمثّل الشرط الأساسي والحد الأدنى من الشروط الواجب توفّرها لنكون أمام عملية تعليمية مؤسسة ومنظمة وحديثة (لا نريد أن نتحدّث عن العصامية بوصفها حالة طارئة). فالعلاقة التي تنشأ بين المعلّم والمتعلّم قائمة على شرط المنفعة، ونعني بها قيام

المدرّس بنقل المعلومات والخبرات والأفكار إلى المتلقي، عبر عدّة وسائط، أهمّها اللغة اللسانية، يضاف إليها مختلف وسائل الإيضاح، التي تمكّن من تذليل العقبات في سبيل توصيل المعلومة وتقريبها إلى ذهن المتلقي في أفضل شروط متاحة، والصورة هي أهمّ وسيلة يلجأ إليها التربويون لتحقيق هذه الغاية.

فالكتاب المدرسي في جميع مراحل التعليم الابتدائي والإعدادي والثانوي لا يستغني، ولا ينبغي له أن يستغني عن الصورة، هذه التي تعتبر جزءا من لغة التخاطب بين المعلّم والمتعلّم، لِما لها من آثار مهمّة على المستوى البيداغوجي والنفسي أيضا، فالطفل لا يتقبّل –نفسيا– أن يكون في مواجهة كتاب عارٍ من الصور والألوان، هذا فضلا عن الفائدة العلمية للصورة بوصفها البديل المنطقي للغة المنطوقة. وعلى هذا الأساس تصبح الصورة مكمّلا للغة اللسانية في الكتاب المدرسي، وحاجة أساسية لا غنى عنها، بل إنها تفوق اللغة اللسانية أهمّية، وبخاصة في مراحل التعليم الابتدائي.

وبناءً على ذلك يمكن تمثيل أركان العملية التعليمية في الرسمة التالية، التي تجسّد حاجة كلٍّ من المعلّم والمتعلّم وحتى المادة العلمية للصورة باعتبارها القناة الناجحة في نقل المعلومات:

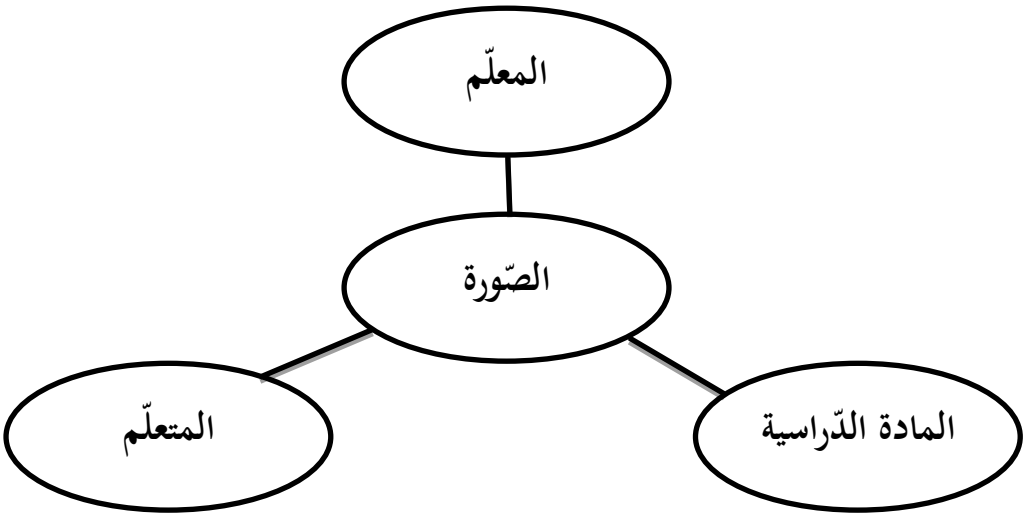

إن اللغة المصوّرة تمكّن التلميذ من استخدام قدراته في تلقي المعارف، وتضعه على سكة جديدة، غير سكة اللغة المنطوقة التي تستدعي الكثير من التجريد والتركيز، بينما الصورة –خصوصا إذا كانت مرسومة بعناية وبألوان مبهجة وجذابة– ستجعل المتعلّم أكثر قابلية للتلقي، وأكثر مشاركة للمعلّم، وليس مستقبِلا فحسب، لأنه يعتبر لغة الصورة مألوفة لديه وليست غريبة، وضمن هذا السياق تحدّث الباحث عبد المجيد العابد عن بعض سمات الصورة البيداغوجية، فهي[9]:

- عنصر إثارة وتشويق بالنسبة للمتعلم الصغير، تيسر الفهم والاستيعاب والانتباه الدائم.
- تساعد الطفل في البناء المنطقي واستخدام أسلوب الاستدلال والاستنتاج والمقارنة والتأمل.
- تنمي التفكير الذهني لدى الطفل، وتطوّر قدراته العقلية في التخزين والتذكر واستعمال التفكير المنطقي عموما.
- تثير اهتمام الطفل في تقبل المادة المدرسية.

- تختزل المسارات القرائية المتشعبة للفظ، لأن صورة واحدة قد تغني عن آلاف الكلمات.
- التأثير في المتعلم الصغير لما تحمله من قيم وأساليب في التنشئة الاجتماعية والتربوية والأخلاقية.
- تساعد الطفل على استثمار ملكته العقلية في الاستنتاج والحكم والتقويم والتقييم والربط، كما أنها تشحذ ذاكرته في استحضار الأشياء الغائبة عن حقله الإدراكي، وتيسر خلق الصور الذهنية في تمثل الأشياء مما يساعده على التعلم السريع.
- الصورة لا تخضع لسلطة الزمن والمكان والحدود، وتغني عن إحضار الأشياء بالنسبة للمتعلم الصغير، فهي غير اللفظ الذي يحتاج إلى إحضار موضوعات عينيا، لأن الطفل الصغير لا يمكنه أن يدرك أشياء غائبة جزئيا عن موسوعته الإدراكية بطريق اللفظ وحده مهما حاولنا شرحه له .

فالصورة بهذا التوصيف تعتبر حالة وسيطة بين اللغة المنطوقة والعالم الخارجي، فهي من جهة تنقل بصورة شبه أمينة العالم، كما أنها تشترك مع اللغة الألسنية في الوظيفة التواصلية، لأنّ اللغة الألسنية تقوم على مبدأ الاعتباطية (Arbitraire)[10] بين الدوال والمدلولات، أما الصورة فليست كذلك، إذ هناك علاقة واضحة بينها وبين موضوعها، وبالرغم من هذا فإنّها يمكن أن تختزن الكثير من المعاني والدلالات، وهو ما يؤهّلها لأن تكون الوسيط الجيد في نقل المعرفة بدلا من الاكتفاء بالخطاب المنطوق.

فخاصية الاعتباطية التي تحدّثت عنها اللسانيات الحديثة هي ما يعطي للغة حيوية أكبر، وقدرة على إنتاج عدد كبير ولا محدود من الكلمات، ولكنها في الوقت نفسه تشكّل عائقا أمام التلميذ الذي ليس من السهل أن يتقبّل مخزونا لغويا، يراه مجرّدا وليس له امتداد في الواقع، ومن هنا تأتي أهمية الصورة لتذليل العلاقة غير المعلّلة بين الدال ومدلوله، وتجعل التلميذ يشعر بأنّ ما يقدّمه له الكتاب المدرسي ذو جدوى، وله صلة بمجتمعه الذي ينتمي إليه. والصورة بذلك تقضي على حالة الملل والرتابة بالنسبة للمعلّم والتلميذ، فتصبح إلى جانب دورها المعرفي ذات وظيفة نفسية، تمكّن من تمرير الرسالة في أحسن الظروف وأفضلها.

الصورة التعليمية في كتاب اللغة العربية للسنة الأولى ابتدائي[11]:

إن اختياري كتاب اللغة العربية للسنة الأولى لم يأت اعتباطا، ولكني لجأت إليه ليكون موضع البحث والتشريح لسببين:

أولهما أن السنة الأولى ابتدائي هي السنة التي تكون فيها الخبرات والمعارف لدى الطفل في حالتها الدّنيا، وبالتالي هو إلى الصور وأدوات الإيضاح أحوج.

ثانيهما أنّ الكتاب غني بالصور والرسومات والأشكال التوضيحية، ممّا يمنح الباحث فرصة كبيرة للاطّلاع على المخزون الثري من الصور.

فكتاب اللغة العربية يتألّف من 25 نصًّا رئيسيا، تمثّل نشاط القراءة، وهو النشاط المركزيّ لهذه الفئة من المتعلّمين، يتمّ تدريسه في الحصة الأولى من بداية كلّ أسبوع، ثمّ تعقبه أنشطة أخرى كاكتساب الحروف عبر مهارتي القراءة والكتابة، ونشاط التعبير الشفهي، والمحفوظات. وتتميّز النصوص الرئيسية في كتاب اللغة العربية بحجمها الصغير،

فهي ما بين السطرين إلى الثلاثة أسطر، لتتجاوز هذا الحجم بقليل في النصوص الخمسة الأخيرة فتبلغ أربعة أسطر أو خمسة أحيانا، ويتبع النصّ دائماً بجملتين بسيطتين مستمدّتين منه تغذيان مكتسبات التلميذ، وتؤطّران ملكته اللغوية.

ومع كلّ نصٍّ صورة رئيسة يبلغ حجمها نصف صفحة تقريباً، علماً أنّ الكتاب من القطع الكبير، بحجم (20سم×28سم)، فمؤلّف المنهاجِ المدرسي حينما وضع الصور فإنه أعطاها موقعا مهّما، وبوّأها الصدارة لمسيس الحاجة إليها في هذه المرحلة العمرية، وأضاف إليها العديد من الصور الثانوية التي لا تخلو منها صفحة من الصفحات الكتاب البالغ عددها مائة وأربعة وأربعين.

بنية الصورة التعليمية:

تتنوّع الصورة التوضيحية في الكتب المدرسية تبعاً لمستوى المتعلّمين، وأعمارهم، وطبيعة المادة المعرفية المراد تثبيتها في أذهانهم، فهناك الصور الفوتوغرافية، والصور المرسوم يدوياً، بالإضافة إلى الأشكال والمخططات التوضيحية المختلفة، غير أنّ الأكثر شيوعاً لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية (السنة الأولى مثلا) هي الصور المرسومة يدوياً، فهي تتجاوز 90% من صور الكتب المدرسي، وذلك بسبب تلاؤمها مع عقلية الطفل، وقربها من مخياله، فهي امتداد للرسوم المتحرّكة التي يشاهدها في التلفاز، بما يجعلها مألوفة لديه، واستمراراً لحياته في المنزل. فالصورة المرسومة يدويا فيها من الجاذبية ما لا تتوفر عليه الصورة الفوتوغرافية، هذا بالإضافة إلى مرونة الصورة المرسومة وقدرتها على حمل المعاني المختلفة وفق المعايير المعرفية التي يضعها التربويون ومؤلّفو الكتب المدرسية.

فالصورة المرسومة يدوياً تمنح الفنان حريّة تشكيلها وفق المعاني المتّفق عليها سلفاً مع مؤلّفي الكتاب، وهو ما يلغي فكرة الاعتباطية التي تمتاز بها العلامة اللسانية، فللفنان حريّة تشكيل الصورة من حيث حجمها ولونها وتوزيع مكوّناتها، وباقي تفاصيلها، هذا بالإضافة إلى النّص المصاحب للصورة حيث يشكّلان معاً علامةً سيميائية كبرى، تقدّم للتلميذ معرفة مركّزة ضمن آلية تصويرية مبسّطة منسجمة مع قدراته ومستواه النفسي والإدراكي.

وتعتبر الألوان من العناصر الأكثر أهميّة في الصورة التعليمية، فتلميذ الابتدائي ينجذب تلقائياً تجاه الألوان، لذلك ينبغي اختيارها بعناية، فللون سحره وسلطانه، يقول عبد الملك مرتاض: "والحق أن سمة الألوان كانت ثقافة شائعة في المجتمع العربي منذ العصور الموغلة في القدم، فقد رووا أن رجلا كان له برْذَوْنان (بغلان) بلون واحد، وتقدم إلى خطبة امرأة فرفضت الزواج منه على أساس أنه أحمق! فلما سُئلت عن طبيعة حُمقه قالت: له برذونان اثنان بلون واحد، يتجشم هو مؤونة اثنين ويحسبهما الناس واحداً! **فكانت سمة اللون هنا حائلاً بين الغاية وتحقيقها**"[12].

ومن العناية بالألوان عدمُ الإكثار منها في اللوحة الواحدة، لئلا يتشتّت ذهن التلميذ، ويتيه في التمييز بينها، فمثلما هناك اقتصادٌ كميٌّ في النصوص اللسانية ينبغي أن يكون هناك اقتصاد لونيٌّ مصاحبٌ له، وهو ما نلمسه في صور الكتاب المدرسي للسنة الأولى ابتدائيّ، فنجد على سبيل المثال في الصورة المشار إليها أدناه ألواناً قليلة تؤثّث اللوحة، مع التركيز الكبير على الألوان الصحراوية، كالأصفر، والأحمر، والبنيّ بمختلف تدرّجاته، وهي ألوان متقاربة، وتوحي بالبساطة، والتواضع، تجسيدًا للطبقة الوسطى التي ينتمي إليها غالبية الشعب الجزائريّ، ولم يكسر هذا النسق سوى الأزرق والأخضر

والوردي، التي تحتل مساحة بسيطة داخل الصورة، فهذه الألوان الثلاثة تمثّل ألوان الثياب التي يرتديها خمسة أشخاص (الأب والأم، والولدان، والضيف بلال).

ويعتبر الإغراء والجذب والتشويق من العناصر الأساسية في الصورة التعليمية، إذ ينبغي أن تتركّب الصورة، فضلاً عن المعاني البيداغوجية المراد تثبيتها، من معانٍ رديفة تقوم على الجمال والبسمة ومخاطبة روح الطفولة، فلو نمعن النّظر في الصورة أدناه لوجدناها تقوم على هذه الأساسات الجاذبة، ممثلّة في:

- ابتسامة جميع الشخوص (عددهم سبعة)، وهو ما يجعلهم قريبين من الطفل عاطفياً وشعورياً.
- تأثيث القاعة بالورود، حيث توجد في موضعين؛ على الأرض، وفوق الطاولة، وهو ما يحبّب الصورة للتلميذ، ويجعلها متوافقة مع نفسيته، ويمنحها المقبولية اللازمة لتبليغ الرّسالة المعرفية.
- توزيع أطباق الحلوى بشكلٍ مغرٍ، حيث توجد ثلاثة أنواع من الحلوى المنزلية، بالإضافة إلى العصير، ما يسمح بإبقاء الأطفال مركّزين على الصورة، استغلالاً لشهيتهم وحبّهم لهذه الصنوف من الطعام.

غير أنّ مصمّم الصور التعليمية قد يقع في بعض الهنات غير المبرّرة، التي تشتّ ذهن المتعلّم، وتجعله يشرد في إيجاد تفسير لأشياء غير ذات بال، على حساب المعاني التعليمية التي تحملها الصورة، فمثلاً من غير المفهوم رسم إطار فارغ من أي محتوى على جدار قاعة الضيوف، كما نشاهده في الصورة النموذجية في الأسفل، ففي العادة يعلّق النّاس في بيوتهم لوحات لأشخاص، أو لأشياء ذات مغزى، أو لآيات قرآنية مثلا، أمّا أن تكون اللوحة المعلقة على الجدار فارغة فهذه –في رأينا– سقطةٌ، لِما فيها من إرباك التلميذ، وحرفه عن المعاني الهامّة في الصورة.

وظيفة الصورة التعليمية:

تعتبر الصورة أوّل أشكال التلقّي المنظّم بالنسبة للتلميذ، فهي أوّل الكتابة، وبداية القراءة، وهي المثير الذي يدفعه إلى التعبير، إنّها عنصرُ متعةٍ وميدانُ اكتشافٍ، ولذلك يحسنُ استثمارها كما ينبغي للوصول إلى تحقيق الغايات المطلوب أثناء العملية التعليمية، التي يمكن تأطيرها بوظيفتين: الوظيفة المعرفية والوظيفة التربوية، إذ لا فكاك بين الغايتين، ما دامت وظيفة المدرسة هي صناعة شخصية الطفل ليكون مزودا بأساسيات المعرفة، وقادرا على التفكير بمنطقية، ومهيّأ ليكون عنصرا صالحا في مجتمعه.

أوّلاً: الوظيفة المعرفية

ونعني بها خدمة الصورة للغاية الأساسية من وضع كتاب اللغة العربية، وهي تزويد المتعلّم بأوليات لغوية، في القراءة والمحادثة، والتوظيفُ الجيّدُ للصورة يستدعي أن لا تكون حمّالة أوجه، متعددة القراءات، مما يشتت ذهن المتعلّم، ويشوّش عليه، فدقة الصورة وواحدية المعنى تسهّل عملية التعلّم، وتجعل القناة سالكة بين المعلم والمتعلم، وهذا ما توفّره الطبيعة الأيقونية للصورة (Nature Iconique)، التي تقوم على خاصية المماثلة بين العلامة وموضوعها، "وتظهر حيوية الأيقونة وقيمتُها في قدرتها على أن تكون وسيلة اتصال وتفاهم بين الشعوب، كما هو شائع في مجالات كثيرة"[13] كالمجال التعليمي مثلا، يقول محمد السرغيني: "ويستلزم معنى المماثلة على الأقل وجود شيئين مدركين حتى تصح المقارنة بينهما:

إنّ المرأة تقول وهي تمعن النظر في صورة ابنها: (هو بنفسه) أو تقول: (ليس هو)"[14]، من دون أن تفرّق بين الصورة والحقيقة. ولهذا يكون من الضروري أن تقترب الصورة التعليمية من الحقيقة المقصودة.

ونضرب لهذه الوظيفة بمثال من الكتاب المدرسي للسنة الأولى ابتدائي، في الصفحة (13)، المعنونة بـ(تعرّف على عائلتي)، وقد احتوت على صورة الطفل (أحمد) وهو الشخصية الرئيسية في الكتاب المدرسي إلى جانب أخته (خديجة)، إذ يرحّب بصديقه (بلال)، ويقوم بتعريفه بعائلته، مشيراً إلى الجدّ والجدّة والأخت (خديجة)، من دون أن يعرّفه بوالديه، لأنّهما معروفان ضمنياً لدى التلميذ المتلقي، وسبق التعرّف عليهما في دروس سبقت.

فالهدف المعرفي من هذا النّص هو أن يتعلّم التلميذ ألفاظ الترحيب، وأن يتعرّف على أهم شخصيتين في النظام العائلي بعد الوالدين وهما الجدّ والجدّة، ولذلك احتل الجدّان وسط الصورة، بحجم أكبر، وزاوية نظر تسمح بظهورهما بشكلٍ أفضل، وهو ما يسمّى في لغة التداوليين بالتبئير (Focalisation)، أي صياغة العمل الفني صياغة تسمح بالتركيز على بنية معيّنة أو مجموعة بنيات داخله، تكون أكثر جاذبية وأقوى على استثارة القارئ والاستحواذ على اهتمامه[15]، وهو ما يسمح بترسيخ مفهوم (الجدّ والجدّة) لدى المتعلّم.

ويتيح موقع (الجدّ والجدّة) في الصورة بوضعهما في مقابل (الأب والأم)، إنشاء علاقة مفاهيمية بين هذه المفردات في ذهن المتعلّم، وهو ما يجعلها متراتبطة في وعيه الباطني، وفق قاعدة الالتزام التي قرّرها علماء المنطق، التي تعني

"دلالة اللفظ على معنى آخر خارجٍ عن معناه، لازمٍ له عقلاً أو عرفاً، كدلالة الحاجب على العين"[16]، فالترابط الاجتماعي ضمن الوسط العائلي، معزّزاً بالترابط الرمزي للصورة ينتج علاقة الالتزام بين هذه الأطراف، مضافاً إليها (الأخت خديجة) لتشكّل في النهاية معجماً لغوياً مؤطّراً وفق نظرية الحقول الدلالية، التي تقوم على تصنيف المفردات اللغوية بحسب الرّوابط الشكلية أو المضمونية التي تجمع بينها[17].

وعلى هذا النمط يسير الكتاب المدرسي للسنة الأولى، فالصور التعليمية واضحة الدّلالة، دقيقة المعنى، كالصور الدالة على الأزمنة مثل الليل والنهار، والصباح والمساء، وعلى الحيوانات المختلفة، والمحيط المدرسي، والبيئة، والعلاقات الاجتماعية، والمباني كالبلدية والمدرسة ومكتب البريد والمنزل وغيرها، فما مِنْ صورة إلاّ ولها أبعادها المعرفية التي تقدّم مكتسبات للمتعلّم تتناسب مع عمره وتستجيب لإملاءات وزارة التربية التي أعدّها خبرات التخطيط اللغوي.

ثانيا: الوظيفة التربوية

لا تقف الصورة في المنهاج الدراسي على أعتاب الوظيفة المعرفية، ذات الطبيعة الأيقونية، ولكنها تتجاوز ذلك إلى كونها رمزا (Symbole)، بما أن "الرّمز يقوم مقام شيء آخر، أو يمثّله، أو يدلّ عليه، لا بالمماثلة، وإنّما بالإيحاء السريع، أو بالعلاقة العرضية، أو بالتواطؤ.."[18]، ورمزية الصورة تؤهلها لأن تكون ذات معانٍ ثانوية متعدّدة، تتسرّب إلى ذهن المتلقي شيئاً فشيئاً، فتظهر بعض نتائجها على الفور، ويظهر بعضها الآخر لاحقا، لأنّ الكثير من المعاني التي قصدها مؤلّفو الكتاب المدرسي ليست ذات طبيعة علمية، ولكنها تربوية قيمية بالدّرجة الأولى، تتأتّى عبر لون الصورة أو شكلها أو حجمها، أو عبر معانيها الهامشية الزائدة على المعنى الأساسي، المتمثل في تعليم الطفل أساسيات اللغة العربية.

وبتتبّع الصور التي يتألف منها الكتاب المدرسي نجدها تؤكّد جملةً من الأبعاد والقيم التربوية المهمة في تنمية شخصية الطفل، وهي:

1.البعد الأخلاقي:

ويمكن ملاحظته بوضوح في العديد من الصور التي تضمّنها الكتاب المدرسي، فهي تكرّس القيم الخلقية المستلهمة من العقيدة الإسلامية، ومن ثوابت المجتمع، فبالعودة إلى الصورة السّابقة نلمس الدلالات الأخلاقية التالية:

أ–قيمة الاحترام: ففي الصورة ثلاثة أجيال؛ الجدّان، والوالدان، والأطفال الصّغار، يتشاركون جميعاً الابتسامة، ويجتمعون على مائدة واحدة، في هيئة تعكس الاحترام المتبادل، والمحبّة بين الأفراد جميعهم. وهي صورة تعبّر عن العلاقات الأسرية كما ينبغي لها أن تكون.

ب–إكرام الضّيف: فالصورة تعبّر عن أهمية إكرام الضيف، والاهتمام به، خصوصاً أنّ القادم هو الجدّ والجدّة، فجميع أفراد الأسرة يحيطون بهما، ويقبلون عليهما بما لذ وطاب من الأطعمة، مع الحرص على إظهار البشاشة والترحيب بهما.

ج–الصّداقة: تمثّل الصّداقة القيمة الأهم في حياة المتعلّمين، خصوصاً إذا كانوا في المرحلة الابتدائية، وهو ما يجعل حضور الأصدقاء في الصور التعليمية المختلفة ذا قيمة تربوية وبيداغوجية على قدر كبير من الأهمية، فالطّفل (بلال) وهو صديق الابن (أحمد) يبدو كأنّه أحد أفراد العائلة، فهو قريب جدًّا من أحمد، ومن عائلته.

2.البعد الوطني:

وهو الأكثر هيمنة على الصور التعليمية، فالكتاب لا يكاد يخلو من صورة ذات مغزى وطني، سواء أكان ذلك بشكلٍ مباشرٍ أم غير مباشر:

أ–الشكل المباشر: عبر صور تعليمية تعبّر عن خريطة البلد، التي تبيّن معالمه وحدوده، وثرواته وتنوّعه الاجتماعي، بالإضافة إلى إظهار الرّاية الوطنية كلّما دعت إلى ذلك الضرورة، فالعلم الوطني يظهر مرفرفًا بشكلٍ واضحٍ في صور المؤسسات التالية: المدرسة، والبلدية، والمستشفى، والبنك، ومختلف المؤسسات الوطنية، أمّا في الصفحة **77** فيظهر التلميذ (أحمد) وهو يرتدي ثوباً بألوان الرّاية الوطنية في مشهد مسرحيّ يبعث البهجة في نفوس التلاميذ، خصوصاً إذا طلب منهم المدرّس أن يعيدوا تمثيله داخل قاعة الدّرس.

ب–الشكل غير المباشر: عبر التركيز على ألوان الراية الوطنية (الأحمر والأبيض والأخضر) وحضورها في الأشكال المختلفة، الطبيعية، أو العمرانية، أو الاجتماعية أو غيرها.

3.البعد الاجتماعي:

ويتجلّى –خصوصا– في الإشارة إلى علاقة الطفل بأقاربه؛ من الوالدين والإخوة والأخوات، والجد والجدة، والجيران وما إلى ذلك، تعبّر عن ذلك عديد الصور التي تضمّ أفراد العائلة الكبيرة، وتزاورهم، وتعاطفهم خلال الأعياد والمناسبات، بالإضافة إلى شيم الضيافة وإكرام الوافد والسرور به، كما يظهر في الصورة أعلاه حيث نشاهد عائلة (أحمد) مجتمعة، في حالة من الانسجام الكامل بين أفرادها.

4.البعد البيئي:

إنّ هيمنة اللون الأخضر ليس اعتباطيا، ولكنه مقصود، لصلته الشديدة بالطبيعة والحياة والنماء، وذلك ما يزرع في الطفل ثقافة الاهتمام بالبيئة، بمختلف مكوناتها؛ المحيط السكني، والغابات، والحدائق العامة، وشاطئ البحر، والهواء، وغيرها. أضف إلى ذلك طبيعة الصور نفسها، فجميع صور الكتاب جاءت منظمة مهذبة معبّرة عن قيمة أساسية تهدف المدرسة إلى غرسها، وهي النظافة التي أشارت إليها الصور كثيرا إمّا على سبيل التصريح، أو على سبيل التلميح.

5.البعد النفسي:

تتميّز معظم الصور الموظفة في الكتاب المدرسي –خصوصا التي تتحدّث التلميذ النموذج (أحمد)– بالحيوية والحركة، فقلّما نجد صورةً يكون فيها (أحمد) ساكناً، وهو تلميحٌ ذكيٌّ من مبدع الصور إلى أهمية النشاط الحركي في حياة الطفل، باعتباره تعبيرا عن حالة سلوكية تعكس نفسية الطفل الذي يعيش في ظرف طبيعية، ومدى انبساطه وبعده عن الانطواء. إنّ الطفل أحمد، وهو هنا الحالة النموذجية التي ينبغي أن يكون عليها الطفل، شخصية متحرّرة من كافة العقد، بل إنه نشيط، ومبتسم، ومتوازن، ومهذّب، يحسن التعامل مع الأقران، والعائلة، والمعلّمة، وهي سلوكات تهدّف الصورة إلى ترسيخها في نفسية التلاميذ وتنشئتهم عليها.

خاتمة:

ختاماً نقول بأنّ نجاح العملية التعليمية يقوم على استثمار كافة الوسائل التي تمكّن من تحقيق الفعل البيداغوجي، سواء أكانت هذا الوسائل تقليدية، كالكتاب والسبورة العادية والطباشير، أم وسائل تكنولوجية كالسبورة الإلكترونية، والألواح الذكية، والتطبيقات الهاتفية ذات الوظيفة التعليمية، فإحداث القفزة النوعية في المجال التعليمي يحتاج إلى تطوير مختلف مهارات التواصل، والاستفادة من كلّ التجارب الناجحة في هذا الشأن.

ومهما حصل من تقدّم في مجال تطوير وسائل البيداغوجيا والتدريس فإنّ للصورة مركزيتها وسلطانها، لِما تتمتّع به من قدرة على مخاطبة الحسّ، وتفعيل الإدراك البصريّ لدى المتلقّي، هذا الإدراك الذي يكون قويًّا في مرحلة الطفولة، بما يسمح باستغلال هذه المدارك لتمرير المعارف المناسبة لهذه المرحلة العمريّة.

فالصّورة جوهر العمليّة التعليمية، بل جوهر الحياة كلّها، فما يزال التواصل البصريّ يهيمن على أكثر من 70% من مجموع ما يتواصل به البشر، وترتفع هذه النسبة إلى أكثر من ذلك في حالة الأطفال، لهذا يعتبر حضور الصورة في الكتب المدرسة ذا أهميّةٍ بالغة، إذ ينبغي استغلالها على نحوٍ أمثلَ، من خلال العناية بنوعية الصورة، وتشكيلها، ومختلف تفاصيل بنيتها، فالصّورة تقدّم للمتعلّم مادّة معرفية متكاملة، تستجيب للأهداف التي رسمها البيداغوجيون من جهةٍ، وتتفق مع عقلية الطفل ومستواه النفسيّ والإدراكي من جهةٍ ثانيةٍ.

الهوامش:

[1] ابن جني: **الخصائص**، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر، 2006م (33/1).

[2] أندريه مارتينيه: **مبادئ اللسانيات العامة**، ترجمة د.أحمد الحمو المطبعة الجديدية، دمشق، 1405هـ-1985م، ص10.

[3] دوسوسير: **علم اللغة العام**، ترجمة د.يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد العراق، 1985م ص34.

[4] ينظر أحمد حساني: **مباحث في اللسانيات**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999م ص143.

[5] حبيب بوزوادة: **علم الدلالة –التأصيل والتفصيل**، دار الرّشاد، سيدي بلعباس-الجزائر، 2008م، ص25.

[6] أندريه مارتينيه: **مبادئ اللسانيات العامة**، ترجمة د.أحمد الحمو ص13.

[7] إيريك بويسنس: **السيميولوجيا والتواصل**، ترجمة جواد بنيس، منشورات مجموعة البحث في البلاغة والأسلوبية، المغرب، 2005، ط1ص55.

[8] بيير جيرو: **السيمياء**، ترجمة أنطوان أبي زيد، منشورات عويدات، بيروت، 1984م، ص66.

[9] عبد المجيد العابد: **تربيتنا أمام تحدي التعليم بالصورة البصرية**، مجلة البيان (2010/11/02) العدد 275 ، (تاريخ التصفّح: 2017/03/18) http://www.albayan.co.uk/mobile/MGZarticle2.aspx?ID=330

[10] مبدأ الاعتباطية هو مفهوم جاء به دوسوسير، ويعني به أن لا تناسب بين الدال ومدلوله، وقد تحدّث عن نفس المبدأ عبد القاهر الجرجاني فقال: (نظم الحروف هو تواليها في النطق وليس بمقتضى عن معنى) **دلائل الإعجاز** تعليق محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1417هـ-1997م، ط2، ص56.

[11] وزارة التربية الوطنية: **كتابي في اللغة العربية– التربية الإسلامية– التربية المدنية**، (السنة الأولى ابتدائي) الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، الجزائر، 2016م.

[12] عبد الملك مرتاض: **اللغة السيمائية**، الموقع الالكتروني لجريدة الاتحاد 2008/6/5: http://www.alittihad.ae/details.php?id=24562&y=2008

[13] حبيب بوزوادة: **علم الدلالة التأصيل والتفصيل** ص140.

[14] محمد السرغيني: **محاضرات في السيميولوجيا**، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1407هـ-1987م، ط1، ص42.

[15] حبيب بوزوادة: **إستراتيجية الخطاب الحجاجي عند البشير الإبراهيمي**، مجلة اللغة والاتصال، جامعة وهران-الجزائر، العدد15 ص91.

[16] حبيب بوزوادة: **علم الدّلالة التأصيل والتفصيل** ص84.

[17] عن نظرية الحقول الدّلالية انظر **المرجع السّابق** ص115 وما بعدها.

[18] محمد السّرغيني: **محاضرات في السيميولوجيا** ص45.